أزهار
الخيانة
حكاية امرأة ذبلت
وهي ما تزال في ربيع العمر
الكاتب
رمضان مصطفى سليمان

أزهار الخيانة

حكاية امرأةٍ ذبلت وهي ما تزال في ربيع العمر

كان ذلك في شتاءٍ ثقيل من شتاءات البلدة، حين كانت السماء تنزل مطرًا رتيبًا على البيوت الطينية المتلاصقة، كأنها تغسل عن الجدران أسرارًا قديمة لا تريد لها أن تبقى.

في طرف البلدة، حيث ينتهي الطريق المعبد وتبدأ الأزقة الضيقة التي تحفظ خطى أهلها أكثر مما تحفظ أسماءهم، كان بيت صغير يقف وحيدًا بين شجرتي زيتون عتيقتين. هناك عاشت أزهار.

لم تكن أزهار قد بلغت الثلاثين حين أخذت الحياة منها ملامح الفتاة وألبستها ملامح امرأة أنهكتها الأيام. كانت في وجهها بقايا جمال صافٍ، لا يزال ظاهرًا في عينيها الواسعتين، لكن ذلك الجمال كان يشبه نافذةً أُغلقت طويلًا؛ يدخل إليها الضوء قليلًا، ولا يخرج منها شيء.

كانت أمًّا لثلاثة أطفال، تتوزع أعمارهم بين الطفولة الأولى وبدايات الوعي. وكان بيتها، في ظاهره، بيتًا كغيره من بيوت البلدة: مائدة صغيرة، سريران للأطفال، موقد قديم، وثياب معلقة خلف باب الغرفة.

لكن البيوت لا تُقاس بما تراه العين.

فبعض البيوت تنهار جدرانها قبل أن ينهار أهلها، وبعضها يظل قائمًا سنوات طويلة، بينما يتداعى في داخله كل شيء.

وكان بيت أزهار من النوع الثاني.

>

تزوجت أزهار شابًا من أبناء البلدة، وظنت في الأيام الأولى أن الزواج بابٌ آخر للحياة، وأن الرجل الذي اختارته سيكون لها سكنًا حين تضيق بها الدنيا.

كانت صغيرة يومها، تحمل من الأحلام أكثر مما تحمل من الخبرة.

كانت تتخيل بيتًا دافئًا، زوجًا يعود في المساء فيجد عشاءه وامرأة تنتظره، وأطفالًا يركضون بين الغرف، وأحاديث طويلة تُقال قبل النوم. لم تكن تريد شيئًا استثنائيًا.

كانت تريد فقط أن تشعر بأنها محبوبة.

وفي السنوات الأولى، بدا كل شيء ممكنًا.

ثم بدأت الخلافات.

في البداية كانت صغيرة، تشبه شرارة تسقط على طرف ثوب ولا يلتفت إليها أحد. كلمة عابرة، سوء فهم، عتاب، صمت طويل. ثم صارت الشرارة نارًا تتكرر.

كان زوجها سريع الغضب، قليل الكلام حين ينبغي أن يتكلم، وكثير الكلام حين لا ينبغي له أن يتكلم.

أما أزهار، فكانت من أولئك الذين يخبئون الألم حتى عن أنفسهم.

كانت تقول: سيهدأ .

ثم تقول: من أجل الأطفال.

ثم تقول : كل البيوت تختلف .

وكانت كل جملة من هذه الجمل حبلًا جديدًا تشد به قلبها إلى بيت بدأ يضيق عليها يومًا بعد يوم.

>

كانت البلدة تعرف.

البلدة الصغيرة تعرف كل شيء، حتى الأشياء التي يتمنى أصحابها أن تظل سرًا.

كان الناس يرون أزهار في السوق بعينين متعبتين، فيسألونها عن حالها، فتبتسم.

وكانت النساء في الجلسات يعرفن أن بينها وبين زوجها خلافات، لكن أحدًا لم يكن يعرف إلى أي مدى بلغ الخراب.

كانت أزهار حريصة على ألا تخرج أسرار بيتها.

لم تكن تريد أن تصبح حكاية في أفواه الآخرين.

ولم تكن تعلم أن الإنسان حين يكتم ألمه طويلًا لا يختفي الألم، وإنما يتحول إلى شيء آخر؛ إلى ثقل يسكن الجسد، وإلى خوف لا اسم له، وإلى سؤال يوقظ صاحبه في منتصف الليل: **إلى متى؟**

كانت تسأل نفسها ذلك السؤال كثيرًا. تسأله حين ينام الأطفال. حين تغلق باب المطبخ. حين تسمع وقع خطوات زوجها. وحين تجلس وحدها أمام المرآة، فتتأمل وجهًا لم تعد تعرفه.

كانت تقول في سرها :متى أصبحتُ غريبة عن نفسي؟

ثم تنظر إلى يديها. يدين صغيرتين تحملان أكثر مما تحتملان.

وكان أكثر ما يؤلمها أنها لم تعد تعرف أي شيء تحاول إنقاذه: زواجها، أم أطفالها، أم صورتها أمام الناس، أم ما تبقى من نفسها.

>

ومع مرور السنوات، أصبح الخلاف بين الزوجين جزءًا من إيقاع البيت.

كان الأطفال يتعلمون الصمت قبل أن يتعلموا الكلام.

وحين يرتفع صوت الأب، كانت عيونهم تتجه نحو أمهم.

وحين تصمت الأم، كانوا يعرفون أن العاصفة لم تنتهِ، وإنما انتقلت إلى داخلها.

كانت أزهار تحاول أن تحمي أطفالها من الحقيقة. لكن الأطفال يشعرون بما لا يقال.

وفي إحدى الليالي، بعدما نام الصغار، جلست أزهار قرب النافذة.

كان المطر يضرب الزجاج، والبرد يتسلل من شقوق الخشب.

وضعت يدها على صدرها وقالت : يا رب، أنا لا أريد الكثير.

ثم سكتت.

فكررت : أريد بيتًا لا أخاف فيه.

كانت تلك أول مرة تعترف فيها لنفسها بأن بيتها لم يعد مكانًا تشعر فيه بالأمان.

>

ثم جاءت الخيانة.

لم تأتِ كصاعقة من السماء، بل بدأت كشكّ صغير. رسالة. تصرفات غريبة. غياب متكرر. تغير في النبرة.

وتلك التفاصيل التي لا تستطيع المرأة أن تفسرها، لكنها تشعر بها في مكان ما من قلبها قبل أن تجد لها اسمًا.

حاولت أزهار أن تكذب إحساسها.

قالت لنفسها : ربما أنا أتوهم .

لكن الشك، إذا وجد أرضًا خصبة، لا يموت بسهولة. كبر.

حتى جاءت اللحظة التي عرفت فيها الحقيقة.

كانت الخيانة واضحة بما يكفي كي لا تحتاج إلى تفسير.

في تلك اللحظة، لم تصرخ أزهار. لم تكسر شيئًا. لم تضرب أحدًا.

جلست فقط. وكان صمتها أشد من أي صرخة.

شعرت كأن السنوات كلها سقطت فوق رأسها دفعة واحدة.

الخلافات القديمة. الليالي التي بكت فيها وحدها. التنازلات. الوعود. الأطفال. الأيام التي أقنعت نفسها فيها بأن الصبر فضيلة.

كل ذلك عاد إليها في لحظة واحدة.

وأصبح السؤال الذي كانت تخشاه واضحًا : **إذا كان الرجل الذي بنيت معه حياتي قد خانني، فماذا بقي لي؟**

لم تكن الخيانة بالنسبة إليها فعلًا عابرًا. كانت انهيارًا للمعنى.

فهي لم تفقد زوجًا فقط، بل فقدت الصورة التي كانت تصنع بها معنى حياتها.

>

في الأيام التالية، تغيرت أزهار. لم تعد تغضب.

وهذا ما أخاف بعض من حولها.

فالغاضب يمكن الحديث معه، أما الإنسان الذي يهدأ بعد انكسار كبير فقد يكون قد ذهب بعيدًا في داخله.

كانت تمشي في البيت وكأنها تؤدي أعمالًا محفوظة. تطهو. تغسل. توقظ الأطفال. تجهزهم. تسألهم عن دروسهم.

ثم تجلس وحدها.

كان أطفالها يرون أمهم، لكنهم لم يعودوا يرون روحها.

وفي إحدى المرات، اقترب منها أصغر أطفالها وسألها : أمي، لماذا أنت حزينة؟

ابتسمت.

قالت : أنا بخير يا حبيبي .

ثم احتضنته طويلًا.

وحين خرج الطفل، بقيت أزهار تنظر إلى الباب.

كانت تعرف أنها كذبت. وكان أكثر ما يؤلمها أنها بدأت تكذب على أطفالها لكي تخفي عنهم انهيارها.

>

انتشر الخبر في البلدة.

وكما يحدث في القرى الصغيرة، أصبح الأمر قضية عامة بعد أن كان جرحًا خاصًا.

جاء أهلها. وجاء أهل زوجها. وتدخل الأقارب. ثم دخل المخاتير ووجهاء البلدة على خط الأزمة، يريدون إغلاق الباب قبل أن تتسع الفتحة.

قال بعضهم : فكرا في الأولاد.

وقال آخر: البيوت لا تخلو من المشاكل.

وقال ثالث : يمكن إصلاح الأمر .

كانت أزهار تستمع. ثم ترفع عينيها. لم تكن تبحث عن كلمات جديدة. كانت تبحث عن شيء لم يستطع أحد أن يعيده إليها : الثقة.

قال أحدهم : أنتِ ما زلتِ شابة، والحياة أمامك.

فكرت : **أي حياة؟**

لم تقلها.

قال رجل آخر : ربما يكون ما حدث زلة.

نظرت أزهار إليه طويلاً.

وفكرت : **وهل يستطيع القلب أن يسمّي الطعنة زلة؟**

كان الناس يتحدثون عن البيت كأنه جدار.

أما أزهار فكانت تعرف أن البيت الذي يريدون إصلاحه لم يعد موجودًا.

>

في جلسة الصلح الأخيرة، اجتمع الرجال في غرفة ضيقة.

كان الشتاء قد بلغ أشده. وخارج البيت، كانت الريح تصفر بين الأشجار.

جلست أزهار في الجهة الأخرى. كان زوجها أمامها. تأملته للمرة الأولى منذ زمن طويل دون أن تراه بعين الزوجة.

رأته رجلًا غريبًا.

وهنا أدركت شيئًا موجعًا : أحيانًا لا تنتهي العلاقة حين يخرج أحد الطرفين من البيت، بل تنتهي قبل ذلك بكثير، حين يجلس شخصان في المكان نفسه ولا يعود أحدهما يعرف الآخر.

قال أحد الوجهاء : هل يمكن أن تبدآ من جديد؟

نظرت أزهار إلى الأرض.

من جديد؟

قالها صوتها الداخلي.

وكيف يبدأ الإنسان من جديد بعدما صار يعرف كل شيء؟

ثم رفعت رأسها. لم تكن تكره زوجها. وهذا ما جعل الأمر أشد قسوة. كانت قد وصلت إلى مكان لم يعد فيه الغضب قادرًا على إنقاذها.

قالت بهدوء : أنا تعبت .

ساد الصمت.

كانت جملة بسيطة. لكنها حملت سنوات كاملة.

>

بعد انتهاء جلسات الصلح ، عادت أزهار إلى بيتها.

كانت البلدة قد هدأت، لكن داخلها لم يهدأ.

في تلك الليلة، نام الأطفال. بقي ضوء صغير في الغرفة.

جلست أزهار إلى جوارهم. تأملت وجوههم واحدًا واحدًا. كانوا أبرياء تمامًا من كل شيء. لم يعرفوا معنى الخيانة. ولا معنى أن يتشقق بيت من الداخل. ولا معنى أن تحمل أمهم في صدرها حربًا لا يرونها.

مدت يدها إلى شعر أحدهم.

قالت في سرها : سامحوني.

ثم تراجعت عن الفكرة التي كانت تخيفها.

لكن اليأس، حين يشتد، لا يأتي دائمًا في صورة فكرة واضحة؛ قد يأتي كغرفة مظلمة لا يرى الإنسان بابها.

كانت أزهار في تلك اللحظة تحتاج إلى يد تمتد إليها، لا إلى حكم عليها. كانت تحتاج إلى شخص يجلس بقربها دون أن يقول : اصبري من أجل الأولاد .

كانت تحتاج إلى أن يسمعها أحد وهي تقول : أنا لا أستطيع.

>

ومع الفجر، كان البيت صامتًا.

استيقظ الأطفال على غير عادتهم. نادوا أمهم. لم تجب. ثم جاء الصمت الذي لا يشبه الصمت.

وفي ذلك الصباح، انتهت حياة أزهار نهاية مأساوية.

لم يكن موتها انتصارًا على الخيانة، ولم يكن حلًا لما عانت منه.

كان إعلانًا أخيرًا عن حجم اليأس الذي تركته الخيانة والجراح المتراكمة في نفس لم تجد من يحمل عنها ثقلها.

وبقي الأطفال. وهذه هي المفارقة التي لا ترحم.

فالذين كانت أزهار تخاف عليهم من ألم الانفصال، وجدوا أنفسهم يحملون ألمًا أكبر: غياب الأم.

>

مرّت الأيام.

وجاءت النساء إلى البيت. بعضهن بكى. بعضهن صمت.

وبعضهن قال : مسكينة.

لكن كلمة "مسكينة" لم تكن تكفي . فأزهار لم تكن حادثة عابرة. كانت نتيجة سلسلة طويلة من الألم الذي لم يجد طريقًا إلى العلاج. كان موتها نهاية قصة، لكنه كان أيضًا بداية أسئلة كثيرة.

من كان يستطيع أن يسمعها قبل أن تصل إلى حافتها الأخيرة؟ من كان يستطيع أن يقول لها إن خيانة الزوج لا تسلبها قيمتها؟ من كان يستطيع أن يذكّرها بأن انهيار الزواج لا يعني انهيار الحياة؟ من كان يستطيع أن يفتح أمامها بابًا آخر حين ظنت أن الأبواب كلها قد أغلقت؟

أسئلة بقيت معلقة فوق البلدة، أثقل من المطر.

>

بعد أشهر، كان أطفال أزهار يلعبون قرب شجرة الزيتون.

كانت الحياة قد عادت إلى الشارع. الباعة ينادون. الأبواب تفتح. الأمهات يذهبن إلى السوق.

والشمس تطل كل صباح كما لو أنها لم تعرف شيئًا.

لكن البيت لم يعد كما كان. على عتبة الباب، بقيت أصيصات صغيرة كانت أزهار قد زرعتها قبل موتها. كانت فيها أزهار بيضاء بدأت تتفتح.

مرّت امرأة من الجوار، فتوقفت أمامها. تأملتها طويلًا.

ثم قالت : سبحان الله... ما زالت تزهر.

ولم تكن تعرف أن العبارة، من حيث لا تدري، تلخص الحكاية كلها.

فقد رحلت أزهار، لكن الزهور بقيت. وكان يمكن للحياة أن تكون كذلك أيضًا. كان يمكن للمرأة أن تذبل، ثم تجد من يسقي ما تبقى فيها. كان يمكن أن تنجو.

ليس لأن الخيانة بسيطة، ولا لأن الجرح يلتئم بسهولة، بل لأن الإنسان أكبر من جرحه، ولأن النهاية التي يكتبها اليأس ليست النهاية الوحيدة الممكنة.

>

وفي مساء هادئ، وقف أحد وجهاء البلدة أمام بيت أزهار.

نظر إلى الأطفال. ثم إلى شجرة الزيتون.

وقال لرجل كان بجواره : كان ينبغي أن نسألها كيف تنجو، لا كيف تبقى.

كانت تلك الجملة متأخرة. متأخرة جدًا.

لكن بعض الجمل لا تأتي لتغيّر الماضي، بل لتمنع تكراره.

ومنذ ذلك الحين، بدأت نساء البلدة يتحدثن أكثر. صار الألم أقل خجلًا.

وصارت الخلافات الزوجية تُعرض على من يستطيعون المساعدة، لا على من يكتفون باللوم.

وأصبح بعض الناس يفهمون أن "التحمل" ليس دائمًا فضيلة، وأن حماية الأسرة لا تعني دفن الإنسان الحي داخلها.

>

أما أزهار، فقد بقي اسمها في البلدة مرتبطًا بالزهور.

كان الأطفال يكبرون. وكانوا كلما رأوا زهرة بيضاء، تذكروا أمهم. لم يعرفوا كل التفاصيل. وربما كان ذلك رحمة. لكنهم عرفوا شيئًا واحدًا: أن أمهم كانت تحبهم. وأنها كانت امرأة تعبت كثيرًا. وأن العالم لم يكن رحيمًا بها بما يكفي.

>

وهكذا لم تكن "أزهار الخيانة" حكاية عن امرأة خانها زوجها فحسب. كانت حكاية عن قلب ظل يطلب النجاة حتى آخر لحظة. عن بيت أخفى شقوقه حتى انهار. عن مجتمع قد يحسن التدخل بعد فوات الأوان، لكنه لا يحسن دائمًا الإصغاء قبل الكارثة. عن أطفال يدفعون ثمن أخطاء لم يرتكبوها.

وعن الخيانة حين تتحول من فعل إلى زلزال يهدم صورة الإنسان عن نفسه والآخر والحياة.

لكنها، قبل كل شيء، حكاية عن ضرورة أن يجد الإنسان، في أشد لحظات ضعفه، يدًا تقول له: **ابقَ.**

لا لأن الألم قليل.

بل لأن الألم، مهما بلغ، ليس قدرًا نهائيًا. ولأن الإنسان قد يرى في لحظة اليأس بابًا واحدًا فقط، بينما تكون الحياة كلها أبوابًا لم يلتفت إليها بعد.

ولأن أزهار، لو وجدت في تلك الليلة من يجلس إلى جوارها طويلًا، من غير موعظة ولا لوم، وربما أمسك يدها وقال لها: لن نحل كل شيء الليلة... لكننا سنبقى حتى يطلع الصباح .

لربما كان الصباح قد جاء. ولربما بقيت شجرة الزيتون تظلل بيتها. ولربما كبر أطفالها وهم يرون أمهم تزرع الزهور في فناء البيت. ولربما أصبحت أزهار، بعد سنوات من الألم، امرأة أخرى؛ امرأة تعرف أن بعض الأشياء تنكسر ولا تعود كما كانت، لكن الحياة لا تنكسر معها بالضرورة.

غير أن "لربما" لا تعيد الموتى.

ولهذا بقيت حكايتها في ذاكرة البلدة مثل زهرة بيضاء فوق قبر قديم:

جميلة من بعيد... ومؤلمة حين تقترب.

وكانت العبرة التي لم يفهمها أهل البلدة إلا متأخرين هي أن بعض القلوب لا تحتاج إلى نصيحة بقدر ما تحتاج إلى من يسمعها، وأن بعض البيوت لا تنقذها المصالحات وحدها، وأن إنقاذ الأسرة يبدأ أحيانًا بإنقاذ الإنسان الذي يحملها على كتفيه.

أما الخيانة، مهما كان جرحها عميقًا، فلا ينبغي أن تكون حكمًا بالموت على أحد. فالذي يخون قد يهدم عهدًا، لكنه لا يملك أن يقرر قيمة من خانه. والذي ينكسر يحتاج إلى علاج، لا إلى عار. والذي يوشك أن يسقط يحتاج إلى يد، لا إلى محاكمة.

وهكذا بقيت أزهار في الذاكرة لا بوصفها امرأة ماتت بسبب الخيانة، بل بوصفها إنذارًا إنسانيًا قاسيًا: **أن وراء كل باب مغلق قلبًا قد يخوض معركة لا يراها أحد.**

وأن السؤال الأهم ليس: لماذا لم تتحمل؟

بل : **لماذا تركناها تحمل كل ذلك وحدها؟**